إلى الحاضر، فلم تزد على أن تبسمت — كعادتها — وقالت: «لا أدرى لماذا أرى الناس يجنون بى».

فأحسست أن لوحا كبيرا من الثلج يوضع على قلبى.. الناس يجنون بها.. الناس ... إذن هناك مجنون، أو مجانين بها غيرى ودار رأسى، وذهبت أسأل نفسى عنها كيف تعيش. ولم يخطر لى هذا من قبل، ولكنه خطر الآن نعم كيف تعيش هذه التى يجن بها الناس؟ وأين وكيف ترى هؤلاء المجانين كلهم؟ لابد أنهم كثر ... فمن أين يجيئون.. إنى أنا صديق صباها، فلا عجب إذا كنت أعرفها.. ولكن غيرى.. غيرى.

وقطع على هذه الخواطر المزعجة سودانى فى ثياب الردنجوت. وكان كهلا، ولكنه يمشى معتدل القامة كالرمح.. فدنا منها وحياها باسمها وسألها عن حالها وعينه تومض، فردت عليه برزانة وسكون ومن غير أن تفارقها ابتسامتها المطبوعة. ولم يطل الوقوف، فمضى عنا وقد عرفت منها أنه ضابط فى الجيش وأنه الآن فيما يسمى الاستيداع، وأن بيته فى العباسية — قرب «المحمدي» فلم أقل شيئا ولكنى قلقت — أو على الأصح زدت قلقا وصرت أناجى نفسى بأن لعل هذه طريقة حياتها.

وتعددت المقابلات بيننا والخروج إلى الحدائق العامة، وكنت أعود بها إلى بيتها فى الليل، فتدعونى إلى مقام قليل، فألبى ونذهب نتحدث كأننا رجلان لا رجل وامرأة. فرأيت منها — شيئا فشيئا وعلى مر الأيام — ما أقنعنى أنها ليست الفتاة التى أحببتها فى صغرى، وأنها لا أكثر ولا أقل من امرأة كغيرها من النساء. ولا أدرى الآن وأنا أكتب هذه السطور أى شىء كنت أحسبها قبل أن أتبين أنها ليست سوى امرأة، ولكن الذى أدريه أنى ظللت أحبها على الرغم من ذلك وأنى جعلت أحاول أن أقنع نفسى بأنها كما كنت أتصورها — على الأقل فى حقيقتها الكامنة، ولكن حبى القديم لها تغير.. فلم يعد فيه تعلق بخيال، بل صار حبا لامرأة معينة. وليس فى هذا ما يدعو إلى العجب، فإن الرجل يحب المرأة لأنها امرأة ولأن فيها من بواعث الإغراء ما يكفى لإثارة الرغبة فيها والتعلق بها، ولكن هذا شىء لم أكن قد تعلمته فى تلك الأيام، فرزقنى الله فى شخص «تفيدة» معلما لا يفتر ولا يتردد ولا يترفق بالمثل العليا وصور الكمال وغير ذلك من الأفلاطونيات السخيفة. وكان أول ما تعلمته — أو من أول ذاك — أن من الممكن أن يحب الرجل حبا عميقا طاغيا امرأة لا يحترمها ولا يرى لها مزية ولا ينطوى لها على إكبار أو مودة أو صداقة، ولا يستطيع أن يتفاهم معها ويشركها فى نفسه وخواطره وآماله ومخاوفه وعواطفه.. امرأة لا يرى فيها إلا أنثى منحطة.. بل امرأة يشعر بالشقاء